متاهٌ عبوريٌّ

Matāh^{un} ^{c}*abūriyyat*^{un}

Une errance traversière

Palestine, août 1989

Texte écrit en août-octobre 1989.
Le choix d'extraits et la traduction sont de Kadhim Djihad
sont parus dans la revue *Al-Karmal* n° 38, décembre 1990

فتاة عبوريّة
(آب ١٩٨٩، القدس)

رولون لافيت (*)

(أيُولَدُ «هوميرِ» من بعدنا . . . والأساطيرُ تفتحُ أبوابَها للجميع؟)

محمود درويش

الجمعة، ٤ آب

تسقط الشمس عموديةً على نقطة «رفح» الحدودية. في الباص الواقف في «الأرض المنزوعة السلاح»، تكشف القبعات عن «كيبيّات»(**)، وتتحوّل الصحف في أكياس الأمتعة إلى العبريّة.

ـ من ننتظر؟ يسأل أحدهم.

فيزفر أحدهم مستاءً: الانتظار. . . بدلَ العمل، يزجي العرب وقتهم في الصلاة!

كنتُ أغلي. وأتحمّل. عليَّ أن أجتاز الحدود بلا تعقيدات. بعد هنيهات، تعلن المضيّفة عن وصول العائلة الأمريكية المنتظَرة.

ـ أمريكان، ولكنّهم عرب!

الجوّ متوتّر. عندما يدخل الرجل الباص متبوعاً بأسرته، يحسّ أنه مَصْليٌّ بالنظرات المصوّبة كلّها إليه، وبكونه مضطراً للإجابة، لإثبات نفسه: إنه ذاهب إلى القدس الشرقية.

ينطلق الباص. بعد مائة متر فحسب، نجتاز حواجز التفتيش الاسرائيلية. سيّارات «الجيب» تبقّع الفضاء المكنوس بنظرات الشُرْطة والمجموعات المدنيّة المسلّحة. ننزل أمتعتنا. يتشكل آنذاك طابور طويل ننتظر فيه، تحتَ أعين متفرّسة، أن تفتّشنا الشرطة.

أشعر بأنّهم يحتلّونني.

(*) Roland Laffite، كاتب فرنسيّ، أستاذ في إحدى الثانويات الباريسية. هذا كتابه الأول (المائل للطبع) نقتطف منه صفحات.

(**) هي القلنسوة التقليدية الصغيرة التي يعتمرها اليهود (المترجم).

يتفاقم التواتر عندما يستجوبون زوجين سويسريين أمامي. أمرّ أخيراً بلا مصاعب. لكن يلزم انتظار ساعة أخرى حتى تتمكن الأسرة الفلسطينية ـ الأمريكية من أن تلحق بنا.

تخرج عجوز باريسية من الباص في اللحظة ذاتها وإيّاي. لم تعد هي أيضاً لتطيق.

ـ لمَ هذه العبارات التحقيريّة بخصوص العرب؟ تتساءل.

يعلنون عن الإنطلاق. ألتحق بمكاني. البنت الصغيرة في الأسرة الفلسطينية ـ الأمريكية إلى جانبي.

ـ ما اسمك؟

ـ نضال.

ـ من أين أنتِ؟

ـ من فلسطين!

وهي المولودة في الولايات المتحدة، والآتية إلى بلادها لأوّل مرة.

□

طوال دزينة من الكيلومترات، نسير على الطريق الإسرائيلية الحدودية المحاطة بالأسلاك الشائكة، ثم ننعطف شمالاً متفادين غزّة.

يتغيّر المنظر كلّياً عمّا كان عليه قبل الحدود، من «العريش» إلى «رفح». صحيحٌ أننا نبتعد الآن عن الصحراء، ولكن هذا لا يكفي لتفسير الاختلاف الذي بدأت أحسّ به. حتى البساتين لم يعد لها الملمح ذاته.

الحقيقة أنّنا عاجزون هنا عن استعادة مصر أو سوريا أو المغرب. ولا حتى إسبانيا أو إيطاليا. لقد طبعَ الإنسان الطبيعة بدمغة أخرى تماماً. إنّ ترتيب المجال لشبيهٌ بالأحرى بمناطق أوربا الشمالية أو الولايات المتحدة. بل إنّ أشجار الكينا لتَضطرّك إلى التفكير بأستراليا. الطبيعة منزوعة العربية، منزوعة المتوسطيّة، ومحالةٌ أنغلو ـ سكسونية.

ننتهج «الأوتوستراد» الذي يصل تل أبيب بالقدس. من تصميم هذه الجادّة التي تخترق الجبال، حتى هياكل الدبابات والعربات الصدئة، بقايا حرب ١٩٤٨، والآثار التي تطعن الشرق برمزيّتها البطوليّة بصورة مشهدية، هذا كلّه مصمّم حتى يوفّر لكم الإحساس بمسيرة انتصاريّة.

رويداً رويداً، يهيمن عليّ شعورٌ بالغرابة. إن ثراء الصنوبر الفاحش لهو ناشزٌ في الفضاء. وها هي القمم البيضاء الصخر التي تنبثق تحت سعار النبات الاصطناعي، تشرع بمُحادثتي. ليست

الصخور بالوحشية حقاً. إنها تنتأ بعنادٍ بحسب الخطوط التي تتبع تضرّسات المكان، لكن حامِلةً بصمةَ الإنسان القوية.

إنني أعرف المشارِفَ المهجورة في وديان البيرينيه وقطلونيا وسيفينيا. تحت الغياب المقصود، أكشف ها هنا عن حضورٍ سريٍّ. ما إن نجتاز «أبو غوش»، حتى تفرض البداهة نفسها عليّ. في كشح التلال الصخرية، أعرف الآن، تحت الصنوبر، حيطان الحجر اليابس المهدّمة، والطرق المُقوَّضة. أنا شاهدٌ على آثار الكرمة الراكضة فوق الحيطان، والأشجار المثمرة المهجورة، وصنوف الصبّار المنتشرة. تحت دخان الوهم المِلحميّ، وفي طباقٍ يتضادّ والذرى المتوجة بالمستعمرات اليهودية الموزّعة في حصون منيعة، يتشبث بالأرض شبح فلسطين التاريخية، أثر شعب مُقتَلع، مهجَّر.

في المنعطف الأخير من «الأوتوستراد»، في قاع أحد الوديان، ترسم أنقاض قريةٍ وَسْماً أزرق على الخاصرة البيضاء والصدئة للمعمار الحديث في مدينة القدس الجديدة.

الأحد، ٦ آب

رائعٌ هو «طريق الآلام» عند اليقظة. تلمس أشعة الشمس جدرانه فتنعشها، قبل أن تغرق صالة الفندق لتجود عليها بفضاءٍ وتنفّس غير معتادين.

أتغدّى صحبة شاب ألمانيّ، وصل البارحة «غيرد» (هذا هو اسمه) طالب في اللاهوت. انتزع نفسه من نزهاته المتوحّدة في غابات «الإيفل» وجاء ليمضي بضعة شهور في الأرض القدس. ليس يجعله حبّه للطبيعة يرفض المجتمع أو يهرب منه. ما لا يحبّه هو المجتمع الوظيفي، المُتاجِر (المركنتيليّ)، والمنزوع الإنسانية. في المجتمع الإسرائيليّ الذي جابَهُ هُوَ طوالَ أسابيع، عثر من جديدٍ، كما يقول، على ألمانيا التي يكره. لم يعثر لدى الإسرائيليّين على روح الضيافة، على الحرارة التي وجدها هنا فورَ وصوله لدى العرب في القدس العتيقة.

□

قرّرتُ اجتياز القدس في الصباح، والذوبان في الأسواق، وشُرب الألوان الساطعة للأقمشة المعروضة في الشارع، والروائح الزكية للتوابل والجلود، والغطس في الشوارع الحية التي أشعر بكوني محروماً منها بصورة فظيعة بعد الهاجرة. ولكن «غيرد» لا يقدر أن يصاحبني.

تفاجؤني الهاجرة وسط اللّعب اللامتناهي، لعب الثرثرة والمزايدة (على الأسعار). بهنيهات

معدودة، تكون البضائع أُعيدت إلى الداخل ومغالق المخازن، الحديدية، قد أقفلت، ويكون «سوق العطّارين» قد فرغ تماماً. أعود إلى الفندق متسكّعاً عبر أدراج «عقبة الخالدية»، وأمكث برهةً لتأمل ذهب قبة الصخرة المتلألىء تحت واجهة من الظلال الزرقاء والطين المطبوخ.

□

ألتقي «غيرد» من جديد. نتقاسم وجبة «كباب» و«فلافل» اشتريناها من بائع جوّال.

«غيرد» مصدوم بموقف أغلب الأوربيين الآتين إلى القدس. يراهم منغلقين في عالمٍ مصنوع من يقينات ثابتة، ومن الغطرسة. حسّاسيتهم واحدية الاتجاه. هم مقتنعون بأن لديهم ما يعطون. ولكن كيف تدفعهم إلى الإحساس بِما يُحسّ هو به؟ بأن ثمة أيضاً الكثير مما ينبغي أن نتلقّاه ونتعلّمه؟

□

يقطع كلام «غيرد» وصول صحفيّ إلى الفندق. يقوده أحد حانوتيّي الحارة إلى مقعد فيجلس. إنه يغطّي أخبار المدينة العتيقة في الـ«جيروساليم بوست».

ـ ما هو الجوّ العام في الحارة؟

فينـطلق محمود: لا تخرج الناس في المساء. إنهم خائفون من أن يُفَتَّشوا أو يُضربوا من قبل الجنود المعتادين على اللكم، واللطم، والضرب بالأقدام، وبأخامص البنادق.

في الواقع، يقع منزل شارون على مسافة أربعين متراً لا أكثر. ما أن يحدث شيء حتى يهرع الجنود المتناوبون على حراسته، وبلا تفسير، يشرعون بالضرب.

ـ مؤخّراً (يواصل محمود) صدمَ إسرائيليّ مؤخّرة سيارة عربيّ، عن قصد، في «شارع الواد». يخـرج العربيّ من سيارته ويطالب بإيضاح: **«الوحيد القادر على التحاور معك هو هذا»**، يقول له الإسرائيليّ مشيراً إلى مسدّسه وقد شهره بوجه السائق.

يضيف أحمد إلى كلام زميله: قبل أربعة أيام، أوقفوا عدّة أشخاص في هذه الحارة (يشير إلى النطاق المحصور بين «شارع الواد» و«طريق الآلام») وذلك في الليل. لماذا؟

يطرح الصحفيّ سؤاله حول مجرى الأعمال.

ـ ليست خارقة.

ـ أيشكو السيّاح؟

ـ كلا، إنّ بعض المتاجر تفتح أبوابها موارِبةً من أجل السياح وحدهم.

يسأل مراسِل الـ«جيروساليم بوست» إنْ كان يقدر أن يذكر أسماء.

ـ الأفضل ألا تفعل.

يودّعهم المراسِل ويخرج. الانطباع السائد هو أنه يتمّم عمل الجيش. يا ترى لمَ جاء؟ ستنال الحارة الإجابة غداً.

□

عرضتُ على «غيرد»، وعلى «فرانتس» (هولندي يقيم في الفندق، نشأ الاحتكاك معه منذ اليوم الأول) أن نذهب إلى مسرح «الحكواتيّ». كنت أحببت المسرحية التي عرضوها في باريس قبل ثلاث سنوات: غرام شاب فلسطينيّ وشابة يهوديّة يصطدم بأسوار الاحتلال.

نلتقي ممثّلين في المسرح وفنّانين من المركز الثقافيّ، يستقبلوننا بلطفٍ كبير، ويبدون رغبة حقيقية في سماع أشياء عن بلداننا. يعرض «فرانتس» مشروعه في تنظيم معرض للوحات فلسطينية في أمستردام. الكلّ يتحمس بالطبع. توضع خطط، واتّفاقات، وتُتبادل عناوين. يعقّب فرانتس: لا شكّ أنّه سيكون من الضروريّ مرافقة اللوحات بشروحٍ أو تفسيرات.

ـ لمَ التفسير؟، اعترضتُ أنا. أتعرف حكاية «دافيد» و«غولْيات»؟

لقد قبضت ولادة اسرائيل على أسطورة «دافيد» طوال أربعين سنة، ظلّ المتخيّل الغربيّ يرى في اسرائيل «دافيد» القديم محارباً «غولْيات». ولكن ها هي واحدة من صحف الأحد تعرض على حيطان القطار الجوفيّ الباريسيّ بعد بداية ثورة الحجارة بتسعة أشهر، هذه الدعاية: طفل ممسك بمقلاعه، معتمراً كوفيّة. مَعروفٌ أن سرّ الدعاية يكمن في إثارة صدى داخل تعاطف الجمهور، وذلك، وبطبيعة الحال، بهدف توجيهه صوب البضاعة المعلن عنها.

ـ إن هذا الإعلان الدعائيّ (واصلتُ) لهو بالنسبة إليّ علامة: إنّ «دافيد» بصدد التحوّل إلى «داوود».

الحقّ، إنّ هذا الإعلان قد رسّخ لديّ القناعة بأن المهمّ ليس هو الخطاب وإنما البحث عن صدى أو رنين متجاوب، يمسّ البشر في امتلاء كينونتهم.

ـ في متخيّل لا يدع مكاناً للثقافة الفلسطينية (هكذا اختتمت كلامي)، يمكن لمعرض جميل أن يتسبّب بصدمة، ويكشف عمّا لا يقدر خطاب أن يفعل أبداً، بل ربّما لن يقوم إلّا بتقليصه. إنني لعلى قناعة بأنّ من شأن معرضك أن يشكّل حجارة مقذوفة في (قاع) الأسطورة.

الاثنين، ٧ آب

ليس من نومةٍ هانئة في القدس. الحواسّ مستنفرة دائماً.

على أدراج الـدير النمسـاويّ، التي تداعبهـا أولى خيوط أشعـة الشمس، فريق من الجند، جالسون، ورشّاشتهم على الركب.

أتمـلّاهم عبـر سياج النافذة. أحدهم جالسٌ القرفصاء. لم يعد جندياً. إنه أيّ فتى يستسلم للنعاس. هو جميل ـ يمكن أن يكون أحد اليهود الشبّان في باريس ـ (تلميذي) باسكال مثلاً، ينعم بالـراحـة في مدرسة «فيتري» بين زملائه المعتمرين «كيبيّات»، ولكن يحلم بالمجيء لتأدية الخدمة العسكرية هنا، في الجيش الإسرائيليّ.

ما يمكن يا ترى أن يداعب رؤوس هؤلاء الفِتْية؟

□

انطلق إلى «البيرة». ينبغي أن أقابل صالح عبد الجواد. عندما التقيتُه في باريس، قبل سفري بقليل، دعاني لزيارته هنا.

في الثامنة، «باب دمشق» في غليان. والجنديّ ما يزال وراء كوّة حراسته.

ـ إلى رام الله؟ يسألني سائق سيارة أجرة في «سلطان سليمان».

أنا الراكب الأخير المنتظر حتى يكتمل النّصاب ويتمكن «التاكسي الجماعيّ» من الانطلاق.

المدينة مطوّقة بِحُصَينات عسكرية للمراقبة في جميع الأعالي التي وهبتها التعلّة الاستراتيجية للاستيطان اليهوديّ.

أشجار «الجهنّمية» والزيتون تحملني إلى «فاس»، وعلى طريق المدرسة الابتدائية، تحملني أشجار الغار الورديّ في طريق نابلس إلى «رويس» في «قطلونيا». إن جميع المناظر لتختلط هنا وتتمازج.

ديكور صخريّ من الأبيض والأمغر والأسمر يَهَبُ الأشجار خضرة أكثر غمقة. طوال الطريق، منـازل جميلة من حجـر ذهبيّ المسحـة. عند خاصرة الكثيب الذي يسبق «البيرة» راعٍ شيخٌ أسفلَ المشارف العامرة بأشجار الصنوبر والزيتون. لِماعزِهِ لونُ الحجارةِ شبه الصدىء وحجمها؛ إنها تختلط بالحجارة.

□

ما جئت، في العمق، أفعل في فلسطين؟

عندما تلقّيت دعوة «إينيس» إلى القدس، لدى مروره بباريس في العام الماضي، تحمّست للفكرة أيّما تحمّس! كنت راغباً بهذه الرحلة منذ زمن بعيد، وبات من البديهيّ أنها ستكون لهذا الصيف.

بعد ذلك بشهور، حملتني قراءة نصّ شعريّ لجنفييف كلانسي وفيليب تانسلان، عنوانه «الصيف العتمرّد»، إلى القدس. عندما رجعت من تَيَهاني، وفِئتُ إلى الحكاية، أحسستُني في مكاني، في الموقف، كما لو كنت قد اتّبعتها من أقصى مساري إلى أقصاه. تولّد لديّ آنذاك الإحساس بأنني قبضت على السؤال: كيف نمسك بالصدى، بالرنين المتجاوب بين فلسطين وهنا؟

إذا كانت فلسطينُ شكّلت لديّ، منذ البدء، نضالاً مثاليّاً ضدّ ظلم وحشيّ يتحمّل فيه الغرب مسؤولية غير متناهية، فإن هذا كان مصوغاً مع ذلك في مفردات سياسية، أو، بالأحرى، بصورة اختزالية سياسياً. رويداً رويداً صرت أراها وهي تتحول إلى محلّ لكثافة كيانها، وإلى العقدة التي تلتقي فيها خيوطٌ من النسيج البشريّ ليس تُعدّ.

بعد فاجعة بيروت، ربّما كانت الصدمة المُخصبة قد انبثقت من واحدة من صُوَر «شبكات»، مجموعة جنفييف الشعرية.

«فلسطين الأمّهات الحافيات العاصرات رأس الإبنِ الميتِ على بطنِ انتظارِ الإبنِ الآخر».

لا شكّ أن هذا الحدس هو ما كنت أشعر بالحاجة القاهرة لتوكيده، صياغته، لا بخطابٍ سياسيّ، وإنما بالتجربة التي تنبجس من بحث محتدمٍ تشارك فيه جميع الحواسّ. لماذا أحسست بالتأهّب لهذا التّيه الفلسطيني في هذا العام بالذات؟

هو ذا ما آسفُ الآنَ لعدمِ تمكّني من أن أفسّره لألبير.

□

العائلة «تَمْس» مقيمة هنا منذ الأزل. لديها عقد إيجار ساري المفعول لخمسين سنة أخرى. كانت الأمّ مقيمة في هذا المنزل مع أبنائها الثلاثة: جورج، الإبن البكر، الذي اختفى منذ شهور، وإلياس، وفرانسيس. البنات الأربع، المتزوّجات، يأتين هنا مع صغارهنّ غالباً. اقتُرِح على الأبناء جنسيّات اسرائيلية، ثم مبالغ ماليّة ليرحلوا. فرفضوا الانخداع. هُدِّدوا بالحبس. لا فائدة.

قبل عامٍ، أوقِف إلياس. وقبل شهر، حان دور فرانسيس، بحجّة المساهمة في الانتفاضة، كمئات الفلسطينيين في القدس العتيقة.

قبل ثلاثة أشهر، توفّيتِ الأم. تلقّت الأسرة إشعاراً بالطرد. وفي الأسبوع الماضي، لقي قرار

الطرد تأكيداً من المحكمة.

ـ «لدواعي أمنيّة!» هذا هو السبب.

يروي موسى محاكمته بانفعال حادّ. يقول مهانته وتمرّده. العائلة «تمسن» تهدّد أمن شارون، أمن منزله في الحارة! يجب إخلاء المنزل في عشرة أيام. لذا قرّرت الأسرة إخلاءه اليوم.

الجميع هنا: أشقّاء الراحلة وشقيقاتها، بناتها الأربع وأزواجهن، الأحفاد والحفيدات، والجيران أيضاً. حركة دائماً في «بيت حنينا».

ـ رُحّلت قبل هذا ثماني أُسَر، يقول عيسى. ينفذ مفعول عقود إيجارها في السنوات القادمة. لم يبقَ في العمارة سوى أربع أُسَر. وسيحين دورها عمّا قريب.

الجميع موقنون من أن المنزل سيفتح بعد سنتين، ولكن من أجل إسكان مستوطنين يهود. إن استيطان المدينة العتيقة جارٍ على قدمٍ وساق. لدى الاسرائيليين خطّة لتجديد المدينة واستيطانها تطرد العرب من مدينتهم نفسها.

ـ يأخذون منّا كلّ شيء، تقول هنرييت. حتى الهواء الذي نتنفّس.

□

في العام الفائت، يقول لي مبارك، أدخل حرّاس شارون كلابهم في المنزل وأطلقوها على صغارنا الذين كانوا يلعبون. للمرة الأولى، لم أعدّ حتى العشرة.

لقد هجمَ على الجنود، شاتماً إيّاهم ولاعناً. ولكنّ جواز سفره السويديّ وفّر عليه المتاعب المعتادة التي تعقب كلّ احتجاج مماثل. وأضاف:

ـ انتهى. لم نَعُدْ نَعدّ حتى العشرة.

وبعد برهة صمت: فلسطين حلم. تناقلناه عن آبائنا. لا شكّ أننا لن نراه يتحقق. ربّما أبناؤنا؟

□

«باب دمشق»: طرد الجنديّ العصفور من كوّة مرصاده. لقد غيّر لعبُ المرايا دَيْنَ الغرب غير المعترف به إزاء شعبٍ إلى معاناة شعب آخر.

«باب دمشق»: إنه الباب الذي لا تجتازه إلاّ في اتجاه واحد.

الطرد تأكيداً من المحكمة.

ـ «لدواعي أمنيّة!» هذا هو السبب.

يروي موسى محاكمته بانفعال حادّ. يقول مهانته وتمرّده. العائلة «تمس» تهدّد أمن شارون، أمن منزله في الحارة! يجب إخلاء المنزل في عشرة أيام. لذا قرّرت الأسرة إخلاءه اليوم.

الجميع هنا: أشقّاء الراحلة وشقيقاتها، بناتها الأربع وأزواجهن، الأحفاد والحفيدات، والجيران أيضاً. حركة دائماً في «بيت حنينا».

ـ رُحّلت قبل هذا ثماني أُسَر، يقول عيسى. ينفذ مفعول عقود إيجارها في السنوات القادمة. لم يبقَ في العمارة سوى أربع أُسَر. وسيحين دورها عمّا قريب.

الجميع موقنون من أن المنزل سيفتح بعد سنتين، ولكن من أجل إسكان مستوطنين يهود. إن استيطان المدينة العتيقة جارٍ على قدمٍ وساق. لدى الاسرائيليين خطّة لتجديد المدينة واستيطانها تطرد العرب من مدينتهم نفسها.

ـ يأخذون منّا كلّ شيء، تقول هنرييت. حتى الهواء الذي نتنفّس.

□

في العام الفائت، يقول لي مبارك، أدخل حرّاس شارون كلابهم في المنزل وأطلقوها على صغارنا الذين كانوا يلعبون. للمرة الأولى، لم أعدّ حتى العشرة.

لقد هجمَ على الجنود، شاتماً إيّاهم ولاعناً. ولكنّ جواز سفره السويديّ وفّر عليه المتاعب المعتادة التي تعقب كلّ احتجاج مماثل. وأضاف:

ـ انتهى. لم نَعُدْ نَعدّ حتى العشرة.

وبعد برهة صمت: فلسطين حلم. تناقلناه عن آبائنا. لا شكّ أننا لن نراه يتحقق. ربّما أبناؤنا؟

□

«باب دمشق»: طرد الجنديّ العصفور من كوّة مرصاده. لقد غيّر لعبُ المرايا دَيْنَ الغرب غير المعترف به إزاء شعبٍ إلى معاناة شعب آخر.

«باب دمشق»: إنه الباب الذي لا تجتازه إلاّ في اتجاه واحد.

الطرد تأكيداً من المحكمة.

ـ «لدواعي أمنيّة!» هذا هو السبب.

يروي موسى محاكمته بانفعال حادّ. يقول مهانته وتمرّده. العائلة «تمسّ» تهدّد أمن شارون، أمن منزله في الحارة! يجب إخلاء المنزل في عشرة أيام. لذا قرّرت الأسرة إخلاءه اليوم.

الجميع هنا: أشقّاء الراحلة وشقيقاتها، بناتها الأربع وأزواجهن، الأحفاد والحفيدات، والجيران أيضاً. حركة دائماً في «بيت حنينا».

ـ رُحّلت قبل هذا ثماني أُسَر، يقول عيسى. ينفذ مفعول عقود إيجارها في السنوات القادمة. لم يبقَ في العمارة سوى أربع أُسَر. وسيحين دورها عمّا قريب.

الجميع موقنون من أن المنزل سيفتح بعد سنتين، ولكن من أجل إسكان مستوطنين يهود. إذ استيطان المدينة العتيقة جارٍ على قدمٍ وساق. لدى الاسرائيليين خطّة لتجديد المدينة واستيطانها تطرد العرب من مدينتهم نفسها.

ـ يأخذون منّا كلّ شيء، تقول هنرييت. حتى الهواء الذي نتنفّس.

□

في العام الفائت، يقول لي مبارك، أدخل حرّاس شارون كلابهم في المنزل وأطلقوها على صغارنا الذين كانوا يلعبون. للمرة الأولى، لم أعدّ حتى العشرة.

لقد هجمَ على الجنود، شاتماً إيّاهم ولاعناً. ولكنّ جواز سفره السويديّ وفّر عليه المتاعب المعتادة التي تعقب كلّ احتجاج مماثل. وأضاف:

ـ انتهى. لم نَعُدْ نَعدّ حتى العشرة.

وبعد برهة صمت: فلسطين حلم. تناقلناه عن آبائنا. لا شكّ أننا لن نراه يتحقق. ربّما أبناؤنا؟

□

«باب دمشق»: طرد الجنديّ العصفور من كوّة مرصاده. لقد غيّر لعبُ المرايا دَيْنَ الغرب غير المعترَف به إزاء شعبٍ إلى معاناة شعب آخر.

«باب دمشق»: إنه الباب الذي لا تجتازه إلّا في اتجاه واحد.

في قرية «طمّون»، قرب «جنين»، احترق ثلاثة أطفال لدى انفجار شيء غير محدّد. يزعم الجند أنهم لم يقوموا بأيّ نشاط في المكان قبل وقوع الحادث. ولكن ثمّة من يقول أن الجنود يتركون متفجرات بهيئة حلوى، تتفجر في أيدي الأطفال.

أمس جُرِح شابٌ على يد العسكر في بيت لحم. واليوم، شرعت المدينة بالغليان بعدَما أعطبَ الجند ساقي رجلين بإطلاقات مطاطيّة.

أهربُ من التلفاز الأردنيّ الذي يعرض مسلسلات أمريكية.

في إعلان دعائيّ لدائرة السياحة الاسرائيلية، مطروح على طاولة في الصالة، يتحدثون عن الانتفاضة. إنّهم يشكرون السيّاح الذين وجهوا لها (للإنتفاضة) ضربة قاصمة بمجيئهم هنا، إلى القدس: سيشكل حضورهم استنكاراً لثورة الحجارة ومساندة سياسية لإسرائيل.

«أينبغي التحاور مع م.ت.ف؟» هذا هو عنوان الاعلان. وتجيب مقالة بـ: «نعم، صحيح أن رجال م.ت.ف يظلون إرهابيين يحملون على عاتقهم أبشع الجرائم بحقّ أبرياء، ولكن كيف يمكن التوصّل إلى السلام من دون محاورة الأعداء؟» مقالة أخرى تجيب بـ: «كلّا: تخيّلوا للحظة أن الأمريكيّين اللاتينيين في تكساس يطالبون اليوم باستقلالهم: ألن تضعوا جميع طاقاتكم في خدمة أمريكا لمقارعة هذه الدّعوى العجيبة؟».

زوجان فرنسيان، سائحان، يدعوانني لتناول القهوة معهما. جاءا لزيارة اسرائيل، لا يحملان، للمطالعة، سوى «الاكسودوس» يعربان عن دهشتهما ممّا يحصل في المدينة العتيقة، وعن عدم فهمهما. يتساءلان، يكتشفان الانتفاضة.

□

أفكّر بصديقي «مختار» من «وجدة». أذنه لصيقةٌ بمذياعه الصغير، يتابع، بِحماسٍ، انتفاضة أيار (مايو) ١٩٦٨ في فرنسا، ثم يتجه إلى باريس، ببالغ الاندفاع.

أتذكّره متحمساً للنضالات العمّالية ولفلسطين. ولكن كان هناك أيضاً مدن الصفيح والجرائم العنصرية.

ـ ما أن تكون لك ملامح عربيّة، حتى يطلقوا عليك النار كما على أرنب.

لقد أدرك مختار وأبناء جيله أنّ أنْ تكون فلسطينياً فهذا يلزم بأكثر من الهتاف: «تحيا فلسطين!». كان هذا يُلزم بمواجهة النفي والطرد والحقد، في باريس مثلما في مرسيلية. فلسطين كانت هناك أيضاً.

الأحد، ١٣ آب

مرّ «عليّ» لاصطحابي كما كان متفقاً عليه. وَصَلنا «جَلَزون» في نهاية الأصيل. جميع أفراد الأسرة حاضرون، لتناول الشاي.

خرجنا في مجموعة واتجهنا إلى عالية الحقل. في المقبرة الفقيرة، الراقدة في خاصرة الكثيب، كانت امرأة تصلّي متوحّدةً بين القبور. وعلى الذروة الداكنة الحجر، كانت ترتسم ظلال صغارٍ يلعبون رامين الحجارة.

في طريق العودة، كان راعٍ عائداً مع ماعزه وخرافه شيه صهباء الملمح، بلون الأحجار. يتبعنا فريق من الصغار، دائرين حولنا، يتصوّرونني، بالطبع، صحفياً، ويرفعون إليّ أيديهم راسمين بالأصابع علامة النصر.

□

غرفة الاستقبال غاصّة بالرجال. يتحدّث يوسف عن المدرسة. إنّه معلّم. في الأيام النادرة التي تُفتح فيها المدرسة، ترى إلى الجند في غاية الانفعال والعَصَبيّة: يخافون الطلبة الصغار. يكفي أن يتجمّع الأخيرون ليستقلّوا الياص، حتى يفجّر الجند قنابل مسيّلة للدموع ليفرّقوهم... وغالباً ما يدخل الجنود إلى الصفّ. والأطفال دائمو التأهب ليرموا الجنود بالحجارة كلّما دخلوا إلى القرية أو المخيّم أو الحارة. في مثل هذه الظروف، يكون من الصعب جداً على الأطفال أن يتعلّموا، وعلى المعلّمين أن يفرضوا الانضباط المعتاد: أدنى ملاحظة تُتلقّى كهجوم على الانتفاضة. يقول لي أحمد:

ـ إنّ بسيكولوجية الصغار قد طرأ عليها تحوّل عميق. أحلامهم مأهولة بصدامات مع العسكر. ترى ما سيفعلون غداً؟

□

خيّم الظلام. أنا بحاجة لاستنشاق هواء المساء، وهُوذَا أرتقي إلى سطيحة المنزل.

«هيثم»، أحد أحفاد فاطمة، يحلم مستلقياً على جدار. القمر يتطلّع إليه؛ يحدّثه برقّة، مداعباً شعره. وهو أيضاً، سيقدر ذات يوم أن يذهب للّعب فوق الكثيب من دون أن يمنعه الجند، سيقدر أن يتعلّم في المدرسة من دون أن يأتي العسكر ليمزّقوا الدفتر الذي رسم فيه ألوان علم فلسطين. القمر

à suivre...